حار كالجمر

TOSIGO ARDENTO

شعر: خوسيه ماريا ألبارِث José María Álvarez

إلى
ماريا دل كارمن ماريي:

The nobleness of life
Is to do thus [Embracing]: when such a mutual pair
And such a twain can do´t, in which I bind,
On pain of punishment, the world to weet,
We stand up peerless.

...ثم أمر بإعدام ماركوس أنيوس لوكانوس الذي، فيما كانت عروقه تنزف دماً ولاح أن قدميه ويديه تبردان وأن الروح ينسحب رويداً من أطرافه ومازال صدره ساخناً وعقله واعياً، تذكر أبياتاً له تصور موت جندي جريح فجعل يتلوها من أولها وأسلم الروح مع آخر كلماتها.

[نهاية الكتاب الخامس عشر من "حوليات" تاسيتوس]

©*Traducción al árabe de: Mohamed Abuelata*

-1-

تخرج من الضباب

في برودة بحر حزين،
تطفو المنتجعات الكبيرة.
وتتوارى المرافئ الخشبية الطويلة
كأنها تختفي في مرآة
غائمة

مقاعد وحيدة ومظلات ضالة.
وتَسمع
انكسار الموج
القديم.

مقدمة مركب
تتأرجح مهيبةً في البياض.
تذكر بسيارة جدتي القديمة
ـأواخر الصيف، مشارف البرد-،
عند المساء،
ورجال يسدون أبواب منزل الشاطئ ونوافذه
بألواح خشبية.
والسيارة سوداء، رحيبة، عظيمة،
كأنها مركب جنائزي- صمت صورة فوتوغرافية:

نصعد جميعاً.
أرى الشاطئ يبتعد
من نافذة السيارة،
تهز الريح أشجار النخيل

فيما
أشيخ.
صبايا يتنزهن حافيات على الرمل
ويحمين أعناقهن بأذرعهن
حول القميص الصوفي.
أسمع ضحكهن وتختفي
وجوههن في الضباب.
تتكسر الأمواج في بطء،
ومثل قطعان ملساء محتضرة
تصر المرافئ الخشبية.

تتناهى
مع صخب البحر
موسيقى
مكبرات صوت بعيدة،
مضمار لعبة صدام السيارات.

مقاهي شواطئ
مقفرة،
وفي يدي كوب.

كنت دائماً كائناً ليلياً،
لذا تعشق اسطنبول،
الفخمة،

وتعشق فينيسيا،
وفجر نيويورك،
وسيارات الشرطة تحت المطر.

أجل،
يتذكر: الأطلنطي في وحشة أرصفة المرافئ،
تصد الدعامات الماء
فيهز جثث الفئران،
وأضواء عابرة قارات
مثل شبح قطار،

يجتاز أحدهم
الأرض المبتلة،
بحذاء مطاطي برقبة،
في السكون الجليدي،
في نهاية بوابات معدنية ضخمة.

كيف تتلاشى الآن،
فوق البحر الوادع،
المنتجعات الكبيرة المتهدمة،
مرافئها الخشبية الطويلة المحيرة.

تمر سيدات فسفوريات
وئيدات،
وتنتقل النوارس إلى الجانب الآخر من الضباب،
قوائم المنضدة ترتشق في الرمل،
تحطم قواقع.

العالم يتهاوى. آهٍ!

رائع. سنرى سقوطاً لا ينسى.
يتأمل السقوط،
يؤكد الإيماءة،
يترك إكرامية.

وكذلك كان سيفعل
الطفل الذي يركب سيارة جدته،
والشط يبتعد
وأشجار النخيل تومض في الريح.

دع الليل يمر،
اشرب،
أنصت إلى البحر
الذي

يضرب
المنتجعات المتهدمة.

على الجانب الآخر من هذه المياه
الإسكندرية، إزمير، حلم الإسكندر،
أزقة قذرة
في ميناء.
ثم
استمع إلى هذه الموسيقى
الصادرة عن مكبرات صوت
في حلبة سيارات في الملاهي.
أغنية قديمة
ومعسولة

وغبية.

ليلةً،
في باحة سان ماركو،
وأنت تتأمل بهاءها،
تخيلت...
إنه المكان الأمثل
لإنهاء حياتك.
أجل، هناك، الزجاجة الأخيرة،
الفرق الموسيقية الجوالة
تعزف،
يمر يابانيون ومراهقات
رائعات الجمال،
ظل إزرا باوند[1].

أجل، لكن،
ليس في الشتاء –فكرت-،
وإن يكن أكثر نبلاً،
بل في واحدة
من الليالي المذهلة
في نهاية الصيف،
بين مئات السائحين، فالس مبتذل،
ذاكرتك مثل فراش بنات الهوى. وأنت،

المرء إزاء عظمة الباحة
تأتي مفعولها
الأقراص المنومة،
سترى الأعمدة آخذة في التلاشي

[1] Ezra Pound

وقباب "البازيليك" وتنطفئ في رأسك
الموسيقى، الأصوات...
ربما تفكر في "الأميرات الصغيرات"[2]،
"حكاية الشتاء"[3]،
ماريا كالاس،
في محاولة للإبقاء
على إيماءة كبرياء.

بينما
تطمس القصور
الماء يفسد الدعامات
وتغطى الأحجار بالعطن الأخضر.

بحق الرب!
دع الأمر!
جميعهم رحل.

وترفع
إزاء إشراق القمر
هذا القمر الآخر، قمر تنائيك.

ثمة أضواء في الضباب.
بعيداً. كاللآلئ.
يمر البحر بلسانه. تمر
نساء من ذهب وسيارات
رائعة. تسمع
واحدة مما يطلق عليها الأغنيات

---

[2] لوحة شهيرة للمصور الإسباني بيلاثكيث.
[3] مسرحية شكسبير.

الإسبانية. أضواء ناعورة. تنهي
كأسك.
مستعد
لأن تقبل الموت في فمه.

يتعانق
بعض العشاق
كالأشباح
في ضباب المرافئ.

لا شيء

تملكه

هذا الرمل الذي
تقبض عليه يدك.

كان صباحاً...
-انعكست القصور على صفحة القنال الكبير
كالجوهر المنثور على ملاءة من حرير-
وأنا كنت أجوب قاعات
أحد هذه القصور.

كان مكتظاً بسائحين،
أذهلهم الترف،
واحدة منهم –أتصور- معلمة
كانت تتحدث أمام جماعة من الصبية
عن قماش بعينه.
كانوا ينظرون

لا كأن ذلك
ينتمي للماضي
(حتى أنا الذي
أجد عزائي في هذا الجمال كله)
بل كعلامات لا تفك شفرتها
لعالم آخر.
فكرت في أن هذه الأسقف والطلاءات
والأثاث والأغراض
النفيسة، والملابس، كل شيء
اختاره مرة شخص
(شخص لا نستطيع
تخيل حياته حتى)
لأنه كان "ديكور" حياته
الطبيعي.

نحن كنا نجوب حوض أسماك ميتاً،
حطام حلم مهجور
ولا صلة له الآن
بحياتنا.
وفكرت
في قاعات الفاتيكان،
التي شيدت لمتعة حبر عظيم
وهو ربما
قذف كأسه لتصطدم بلوحة
في ليلة لذيذة
فاضطر "رفائيل" إلى إعادة رسم
الحائط،
وربما فاق الأصل.

والآن هذا الجمال شيء
تنبغي حراسته، حمايته،
مجد لا يتكرر
غريب
يموت
في أعين
من لا يستشعرونه.

بيد أن ذلك ربما
كان طالعي. أن أرى النهاية.

ومثل هذا الجمال
وحشة ذاكرتي.

لذا
لا ينبغي لك أن تخشى
الموت ولا حتى
أن تتخيله في مثل هذا الشرف،
متعالياً، مرصعاً بجوهرة
هذه الباحة الرائعة.
فقد يحملك يوماً
إلى فولاذ سيارة
محترق أو تقضي نحبك وحيداً
في فندق.
خذ حفنة من الرمل.
إنها رطبة. كأنك تطبع اثراً
في اليد.
أنصت إلى صوت الماء

وهو يصطدم بالدعامات

مهيبة، مهجورة،
في الضباب،
تطفو المنتجعات الكبيرة.
وشيش هذا البحر
الذي يضرب الشط، مظلماً؛ تعي
كل شيء تقريباً. تشرب أمام
خلفية من الأنوار المضببة
في مضمار سيارات التصادم.
الموت يرقص كي يثيرك
في مضمار من الأسمنت على لحن
أغنية غبية. تمر
صبايا هن هاويات.

آهٍ، أنصت. إنها
مجاديف السفن الإغريقية. أنصت،

إلى "ثثثثثثثثثثثث" النوارس

وهي تخترق

الضباب.

سماء جسدها
رطب.

يتوقف العالم.

آلهة

قتل النفس.

قمر فيفالدي العنيف.

-2-

لو أن هذا وحده
لم يندثر لو أننا لم نقرأ
هوميروس،
أو فيرجيل أو تاسيتوس،
لو لم يصل إلى أعيننا
أي طلل
لكفى
هذا العمود
الوحيد على حافة التل،
بارتفاعه المناسب كي يفيد منه رجل
ينشد الراحة
ويطلق العنان لأفكاره
في طزاجة أشجار الصنوبر
وهو يتأمل الطبيعة.

عمود في شمس مساء
صقلية الرحيب. يتوقف
السائر مذهولاً.

كل شيء جنون خارج محيطه.

وجمعنا حطباً
إلى جانبه، وأوقدنا ناراً
ونحن ننظر إليها شربنا خمراً
والمغيب، كالطاووس،
جعل يأفل موحشاً ومتنائياً
في غور الماء. أنشد أحدهم

أبياتاً من الإلياذة
تشيد بتحدٍ وبشجاعة رجال
أمام أبواب مقدسة.

كيف كانت
تبث الحمية
في القلب
وكيف
تشعل
أقدم المشاعر،
الشهرة، الدم، النصر.

كلب
كان يهبط الجبل
اقترب.
ألقينا إليه
بكسرة
خبز.

العمود
ارتفع في ضوء
ليلة عظيمة صاعدة.

أجل. هذا السطوع

قرار اتخذه أحدهم

ضد المصير.

سنستلقي إلى جانبه
وننظر
ونلعق جراحنا.

-3-

كاد شكسبير
أن يفقد حياته. أمر
ينبغي أن نتأمله ونقيس
بعناية
قدر رقابنا.

ثم

سافرْ. يفضل
(مع ذلك) –فيما يمر
المشهد الطبيعي
كأنه رسم على أسطوانة- يفضل
أن نتأمل كثيراً
ما كتبه مونتين: الحمق سيد
لا يرحم
فهو لا يفسد عقلي وحده
بل
ويفسد ضمير ي.

وآهٍ، أجل، أيها العالم، مر!
جلس ستندال
في هذا المقهى.
(ربما لا يكون
ستندال
قد جلس بعد

في هذا المقهى) . أتذكر ليلة شتاء كان
القمر إلهاً مهيباً.
ومضت
أبواب "الفلوريان"[4]
كفراشات ذهبية في الضباب.

كنت أشرب في تؤدة
حين دخل رجل وامرأة وخلفهما
كلب.

جلسا تحت لوحة بهيجة
لكازا وكارليني[5]. وحضر
نادل وقدم قهوة وحلوى.

غاب. وبعد قليل،
ظهر يحمل آنية
من فضة، بها ماء،
ووضعها إلى جانب الكلب.

ذلك الألق ليس عفو الخاطر.
مثل أعين الأطفال ماسحي الأحذية
في اسطنبول، مثل الجذام في القاهرة.
أن تعرف أن نهاية العالم
ما هي إلا تكرار زائل
لشقاء بعينه معروف سلفاً،
ولا أهمية له سوى كونه
نوعاً غارباً ومتميزاً من الخدمة.

---

[4] The Florian
[5] Casa y Carlini

حسنٌ.
كاد شكسبير أن يفقد
حياته. لا تنسَ. ينبغي أن نضع
هذا الأمر دائماً
في الحسبان. تعلَّمْ
كيف تنجو بنفسك. كم كانت
حياتنا
بلا قيمة.

تذكر.

تذكر

فيما تمر قوارب الجندول
كشفاه للموت فيما تمر حياتك
وتتعرفها
في أي جزء
تمر
طيور... الضباب. يصطخب البحر
في المرافئ.

لا شيء يعني
شيئاً، التاريخ
جيفة،

آهٍ، وأنت،

الثمل الموحش

الذي تشاهد كل شيء
آهٍ، لك،
يا من ترى النهاية
تتأمل
في ضوء الغروب
واجهات جد وادعة، ترى فوق دوغانا[6]
انطفاء ذهب
العالم، الحظ ساكناً فجأةً
في صمت الريح، تلحظ
كيف تغوص المدينة

رأيت الزمن في الماء.
وما أحببت واحترمت يطفو
كنفايات فوق الموج.

فكر في شكسبير.

تذكَّر ما أبهى هذه الباحة
مسرحاً للموت.
لا تعرف أحداً. في واحدة
من تلك الليالي الرائعة
في الصيف، الجوقات تعزف، كل شيء
يكتظ بأشخاص
غرباء. أقراص منومة.
وكحول.

فيما يمر القمر
وترى الجمال يأفل.

---

[6] La Dogana

سيقولون، فيما بعد: أجنبي، أجل، ربما القلب.
قبل إجراء
التشريح.

ماذا سيجدون.

شوارع تغشي المسافر، وجوه
نساء.

الليل
جنون. له
ومض مرايا. تشعر
بالكحول متوحداً
مع جسدك،
تغدو رائعاً كبيت من أبيات فيرجيل.

كل من كنتهم
جعلوا يرحلون
في ليالٍ
كهذه. تأتي على
الحسوة
الأخيرة، تخرج، تحس بالبرد
في الوجه، تمر سيارة أجرة

بعد ذلك الصحراء. رامبوه اجتازها.
أجل، رامبوه، ذلك المريض مرضاً عضالاً.
يزود عن نفسه
بالمال.

أنا أذكره،
وهو يدخل "جو دي بوم"[7]،
في القاعة الصغيرة
التي إلى اليسار، في لوحة
فانتان-لاتور[8]. آهٍ، في واحدة
من تلك الليالي المزهوة،
مع الأصدقاء، يحتسي الشراب ويحلم
بالمجد، إلى جانب فيرلان،
قمر تلك السماوات.
آهٍ، بيت الشعر الذي لن يموت أبداً.

عيناه زائغتان. ربما تكون ليلة
عبارة
Merde pour la poésie

الشهيرة.

يتهيأ للتصوير—أعتقد. يعلم
أن آخرين مثله سيزورون هذه الصورة

فيرلان يتألق.

وهذه الـ*Merde*
لم تزل تلوح له
إيماناً بالشعر. فهو قد رآه
على غير هدى، فيما يلامس كأساً ضاربة إلى الخضرة رآه
يتلاشى
في ضباب حارة قذرة، مثل

---

[7] Jeu de Paume

[8] Fantin-Latour

بغي
تؤوب
متعبة.

في الليلة
الزجاجية

يحتسون الشراب.

أفكر في حدثين
لاحقين:
إرنست جونغر[9]
يتأمل
من نافذة مظلمة
في "ماجستيك باريس"[10]. لا يهم من انتصر
في تلك الحرب التي انتهت خلف الزجاج الغبش.

قضي الأمر.
رأس
مد حدود
الذكاء والإقدام والسماحة
يموت. في مرآة
تفيض دماً
يتأمل نفسه
راضياً شخص بغيض. زمن

قتلة، هكذا حلم
شاب اللوحة الذي أتحدث عنه.

---

[9] Ernst Jünger
[10] Majestic Paris

وسنوات
فيما بعد، في قرية صغيرة
بالولايات المتحدة، جندي سابق
يدخل
حانة، يحمل بندقيتين
وطبنجة، ويشرع
في إطلاق النار على الناس
دون تمييز، يقتل
عشرين. يقلع عن إطلاق النار
حين يمل.

حسنٌ. لا يجب
أن نحس
بالهلع
من الهول.

ذلك
أمر مألوف يحدث.
وربما من
بين كل من كانوا يأكلون، ربما القاتل
وحده
هو من كان يحمل شيئاً من الحياة
بين ضلوعه. ربما كان الوحيد
الذي يمكنك
أن تجلس
وتعاقره الشراب.
نقل التلفزيون الخبر
في الحال. استطعنا رؤية الجثث.

زمن

قتلة.

حين تومض أنوار الشوارع
كطقطقة على الطوارات المبتلة.
وتمر سيارات
رائعة سيدات
ذوات نظرات
مقتدرة.
تأتي الريح محملة بالزجاج،
تعصف بأشلاء،
أجنة تسد البالوعات،
وفي نيويورك تطل مع الفجر
تخرج رأسها
من ثقوب في الشوارع
كائنات بيضاء العيون وبلا شعر.

التي سوف تنجو من الموت.

لا رامبوه -الذي
تهيأ ينتظرها-
ولا فيرلان -ظل القمر
الغريب.

انظرا الكائنات البيض
المعتادة النفايات،

...حيواناتها الباردة.

هذا وحده ما سيبقى.

عدة مرات قرأت
في "سيرة حياة بومبي"
الرائعة، موته.
وإلى هذه الصفحات الرفيعة
أشير.
لكنني سأشدد على صورة:
قطعوا رأسه واحتفظوا به
ليشتروا حظوة
عند قيصر، الذي
احتقر القربان (ومباعداً
وجهه
بكى،
كما يقول بلوتارك).
ظل جسده ملقياً به في مستنقع؛
غسل تابعه فيليبوس رفاته في البحر
وببقايا خشب مركب
أقام محرقته الجنائزية.

حينئذ دنا أحدهم،
شخص كان في شبابه جندياً
في إحدى فرق بومبي،
وسهر على النار باسم ذلك المجد
إلى أن بات أعظم القادة
رماداً.

عل هذه الأبيات
تكرر تلك اللفتة

وتسهر
على جسد آخر:
جسد الفن.

لأنه هذا الرماد وحده.

الفجر له ومض
قمري
من اليأس.

أجل، أنصت.
حذار ورقبتك،
شكسبير
نجا بها

بشق
الأنفس

الليل
بهي، علوي البهاء.
ولا يهم كثيراً
أن حضارة
سقطت.

****